كتب

في روايته الجديدة، «أشقّاؤنا غير المتوقّعين»، يقدّم الكاتب اللبناني الفرنسي نصّاً يولّف بين عناصر من الفانتازيا والواقعية، وينتقل من أجواء كارثية وديستوبية إلى عوالم يوتوبية. تنتصر الأخلاق، مسنودةً بالعِلم، أمام الأزمات الوجودية والسياسية

معجزة إغريقية بنسخة القرن الواحد والعشرين

أشقاء أمين معلوف غير المتوقّعين

أرنست خوري

بقدر ما أنّ رواية أمين معلوف الأحدث، «أشقاؤنا غير المتوقّعين» (يبدو Nos Frères Inattendus) أن دار الفارابي البيروتية اختارت ترجمته بعنوان «إخوتنا الغرباء») معجونة بعناصر من الخيال العلمي، بقدر ما تنتمي إلى الواقعية الفاقعة، وبقدر ما هي وجودية فلسفية، فإنها سياسية ـ أخلاقية، وهذا ليس بغريب عن أعمال حامل جائزة غونكور 1993 عن رواية «صخرة طانيوس». وبين الخيال والواقعية، الأكيد أن روايته الجديدة الصادرة أواخر عام 2020، حالِمة إلى حدّ اليوتوبيا، ذلك أنه يتصور حضارتنا مثلما يتمنى أن تكون: أخلاقية، فائقة القدرات العلمية، خيّرة، تؤدي واجب الإنقاذ من دون مقابل. العالم عنده يتجه إلى الزوال أو على الأقل إلى كوارث نووية وصحية أكبر من تلك التي عشناها ونعيشها، وفجأة يأتي بشر من لحم ودم، لكن من حضارة أخرى، من أحفاد الميثولوجيا الإغريقية، فينقذون البشرية بقدراتهم العلمية الخارقة، من دون أن يكون في بالهم أي طموح بالسيطرة وفرض التبعية والهيمنة وإهانة كرامة حضارتنا العاجزة. ومع ذلك، فإن ردّة فعل ناسنا وهوياتنا القاتلة ونزعاتنا القومية وجماعة السيادة، تبقى متوجسة منهم حتى القتل. ولئن كان الموت حتمياً بالنسبة إلى حضارتنا، فإنه لم يعد كذلك بالنسبة إلى «أشقائنا غير المتوقعين»، فقد تمكنوا، في مكان ما من عالمنا، لا نعلم عنوانه، من تطوير الطب وبقية العلوم بشكل أصبح الرحيل عن دنيانا أمراً يمكن تفاديه، وصار عند هذه الحضارة الأخرى، وهي تعيش على كوكبنا نفسه، وزمننا نفسه، علاج طبي لكل الأمراض وللشيخوخة حتى، وصار العمر قابلاً لأن يمتدّ إلى ما لا نعرف حدوداً له من دون أي إشارة إلى الفكرة الدينية للخلود في عالم آخر. وما الذي قد يشكّل صدمة وإرباكاً أكبر من هذه الحقيقة لحضارتنا التي ظنّت طويلاً أنها ختمت العلم وأنجزت كل فصول التقدم؟

يبدو أمين معلوف (72 عاماً) في روايته المكتوبة بالفرنسية (دار نشر Grasset) حائراً بين المؤرخ والروائي. المكان: جزيرة متناهية الصغر على أرخبيل مطلّ على المحيط الأطلسي في مكان ما من غربي فرنسا. جزيرة معزولة عن العالم ومتصلة به في آن واحد، من خلال حركة المد والجزر التي تسمح بعبور ساكنَي الجزيرة منها وإليها. البحر والحضارات البحرية بطلان ضمنيان للأحداث، وذلك يبدو منطقياً نظراً إلى شدة تأثر معلوف بكل ما يتصل بالحضارة الأثينية البحرية، وبالمعجزة الإغريقية الحديثة، البَحرية أيضاً، فترى أبطال القصة (النباتيّين، بالمناسبة) يظهرون ثم يختفون من البحر وفيه، من خلال المستشفيات الآتية على ظهر السفن لتقديم العمر المديد بمجرد إدخال المرضى في «نفق الشفاء» العجيب.

عمر القصة شهرٌ واحد يتوقف فيه الانشغال بهموم الحياة مثلما نعرفها، من 9 نوفمبر/ تشرين الثاني حتى 9 ديسمبر/كانون الأول من عام ما، لكنه ليس ببعيد، قد يكون اليوم أو غداً، فكل عدةّ شغلنا (الإنترنت خصوصاً) تحتل مكانة رئيسية في حبكة الحكاية. معالم الكارثة التي تهدّد البشرية بالفناء، طريفة: يستفيق الراوي، رسام الكاريكاتير أليك (Alec)، الخمسيني وجارته الوحيدة إيف (Eve) الروائية الثلاثينية على الجزيرة النائية، بلا معرفة تجمع بينهما، ليكتشفا أن كل ما يتعلق بالتواصل والاتصالات (من الراديو والتلفزيون وكل وسائل المواصلات والكهرباء والإنترنت... أي كل شيء عملياً) معطّل بالكامل، فيخشيان أن يكون ذلك ناتجاً من كارثة نووية، ذلك أنه في تلك الفترة، كان العالم، والغرب تحديداً، يعيش تهديداً نووياً. سنعرف لاحقاً أن تعطيل كل شيء كان من فعل أشقائنا أحفاد الإغريق، لكن ليس لتخريب حياتنا، بل على العكس تماماً، لإنقاذ حضارتنا من الزوال بفعل الاصطدام النووي الوشيك.

الرواية منشورة أواخر عام 2020، ولكنها مكتوبة قبل ظهور الوباء الكبير (كورونا)، لا بل قبل كتابة ونشر كتابه السابق «غرق الحضارات» (أواخر 2019) بحسب ما يفصح معلوف نفسه في مقابلة على قناة دار «مولا» Mollat على «يوتيوب». مع ذلك، فإنها نموذجية لتتناسق مع ظروف وسياق الوباء الذي تعيشه البشرية منذ نُشرت الرواية، ويا لصدفة التزامن. كذلك فإنها مكتوبة طبعاً قبل الانتخابات الأميركية الأخيرة التي قد تكون الأغرب والأخطر في تاريخ الولايات المتحدة وربما العالم. ولكن الكتاب مليء بالإحالات إلى خطر الشعبوية والنزعة القومية ومجموعات التفوّق الإرهابية في أميركا ممن هاجموا سفن الشفاء الإغريقة وقتلوا منهم تسعة أطباء وأكثر من 100 مواطن أميركي، كجواب وحيد امتلكوه ضد حقيقة أن منقذي البشرية من الكارثة النووية ومن الموت الحتمي بسبب المرض والشيخوخة، هم أرقى أخلاقياً وعلمياً من ناسنا.

«أشقاؤنا غير المتوقعين» رواية تغرف من فكرٍ هيغلي يعيد كل أوجه الحضارة إلى الإغريق، من العلوم إلى المسرح والديمقراطية والفلسفة، بما يمكن أن يُصطلح على تسميته «المركزية الإغريقية» التي يرى مفكرون كثر أنها مبالَغ بها، وأنها تنطلق من خلفية أيديولوجية تتجاهل مساهمات ثقافية هائلة قدمتها حضارات عديدة أخرى مثل العرب والفراعنة، قبل الإغريق وبعدهم، قبل 24 قرناً وبعدها. وما أسماء العلم للأشقاء اليونانيين أبطال الرواية، إلا تكثيفاً تاريخياً لذهول معلوف أمام الحضارة الإغريقية: تجدهم يحملون أسماء أغاميمنون Agamemnon (ملك من أبطال حرب طروادة في إلياذة هوميروس)، وديموستين Demosthene (السياسي الأثيني والخطيب المفوَّه في القرن الرابع قبل الميلاد) وبوزانياس Pausanias (أحد رموز انتصار الإغريق ضد الغزو الفارسي في القرن الخامس قبل الميلاد) وأمبيدوكل Empedocle (الفيلسوف الإغريقي الشهير) والملكة إلكترا (ابنة الملك أغاميمنون) وغيرهم. عند هؤلاء القوم، الموت لا يُقابل بعاديّةٍ مثلما هو حالنا، ذلك أنه نادر الحدوث عندهم، وعندما يموت أحدهم، تكون نكبة مكتملة الأركان. هكذا، يتمنى معلوف، من خلف راويه، أن يصل الطب عندنا إلى مستوى إطالة العمر إلى حدود قصوى، وهذا ما لا يمنعه من وضع «حكمة» على لسان كبير أطباء «أشقائه»، بوزانياس: «من دون الصراع مع الموت، تفقد الحياة بُعدها التراجيدي، ولا تبقى لها النكهة نفسها»، قبل أن تخرج منه نبوءة «كورونية» (للتذكير الرواية مكتوبة قبل ظهور وباء كوفيد)، فيقول في الصفحة 254: «تصوروا فيروساً قاتلاً يضرب العالم من دون أعراض». أجواء «أشقاؤنا غير المتوقعين» فيها ملامح من عملَيْ أمين معلوف (72 عاماً) السابقين، «الهويات القاتلة» (1998) و«غرق الحضارات» (نهاية 2019)، خصوصاً لجهة التشاؤم الذي لا يفارق الراوي حيال أحوال عالمنا، إلى حدّ يلامس اليأس، قبل أن تظهر معجزة ما تحيل دوماً إلى تفاؤل بقدرة الإنسان على إنقاذ نفسه وغيره في اللحظة الحاسمة قبل الزوال. في «أشقاؤنا غير المتوقعين»، مساحات واسعة لكل أشكال الفانتازيا والمنطق والسياسة والفلسفة وصنعة الكتابة بالفرنسية، المتمكنة للغاية لدى صاحب «الحروب الصليبية كما رآها العرب». فيها خاتمة غريبة عجيبة قد يجدها كثيرون خارجة عن سياق القصة أو بالعكس، تكريساً لها. فيها أمكنة رحبة للأمل بالبشرية، ولليأس كبير منها. فيها تصوّر عالم تنقلب فيه الأولويات: المال والهرميات الاجتماعية والسلطة والوقت والعمل وموازين القوى يمكن أن تصبح، في لحظة ما، أكثر من هامشية عندما يلوح أمل من وزن ما يحمله المنقذون اليونانيون. في الرواية، راهن ومستقبل وهوس بالتاريخ لا نلحظه مع أنه يسكن كينونة معلوف، المؤرخ والروائي.

لطالما قيل إن أسوأ ما يمكن أن يحدث مع الموسيقى هو الكتابة عنها بدل الاستماع إليها، وربما يكون ألطف ما في «أشقاؤنا غير المتوقعين» هو قراءتها بدل الكتابة عنها.

(مدير تحرير صحيفة العربي الجديد)

يبدو معلوف حائراً، في عمله هذا، بين الروائي والمؤرّخ

أجواءٌ تذكّر بعملَيْه «الهويات القاتلة» و«غرق الحضارات»

كل أشكال الفانتازيا

في «أشقاؤنا غير المتوقعين»، مساحات واسعة لكل أشكال الفانتازيا والمنطق والسياسة والفلسفة وخاتمة غريبة عجيبة قد يجدها كثيرون خارجة عن سياق القصة أو بالعكس، تكريساً لها. فيها أمكنة رحبة للأمل بالبشرية، ولياس كبير منها. فيها تصوّر عالم تنقلب فيه الأولويات: المال والهرميات الاجتماعية والسلطة والوقت والعمل وموازين قوى يمكن أن تصبح، في لحظة ما، أكثر من هامشية.

أمين معلوف في جزيرة يو غرب فرنسا (Getty)

نظرة أولى

يتتبّع الباحثان معطي منجب وعبد اللطيف الحماموشي في كتابهما **منصف المرزوقي: حياته فكره (حوار - سيرة)**، الصادر حديثاً عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، محطّات أساسية في حياة رئيس تونس الأسبق، بدءاً من انخراطه في نضالات الطلبة العرب والأوروبيين، خلال دراسته في فرنسا في أواخر ستينيات القرن الماضي، مروراً بمعارضته الرئيسين الحبيب بورقيبة وزين العابدين بن علي وما تعرّض له من سجن وطرد من وظيفته الجامعية، وصولاً إلى اندلاع الثورة التونسية ومحاولات الثورة المضادّة إفشال التحوّل الديمقراطي.

من عمق ذاكرة ثائر عنوان مذكّرات المناضل الجزائري علي بيبيمون التي جمعتها وأعدّتها ابنته، الباحثة كلثوم بيبيمون، وصدرت حديثاً عن «الآن ناشرون وموزعون». يتضمّن الكتاب تفاصيل من سيرة بيبيمون الذي لُقّب بـ«صحراوي علي» خلال ثورة التحرير الجزائرية، ورؤيته ومواقفه حيال عدد من المحطّات المهمة أثناء مقاومة الاستعمار الفرنسي، والتدريبات والكمائن والاشتباكات التي شارك فيها، ثم تفاصيل إصابته وسجنه وتعذيبه في سجن باتنة وسجن عين التوتة، وما تلاه من بناء وصراعات داخلية أعقبت الاستقلال، والمناصب التي تقلّدها.

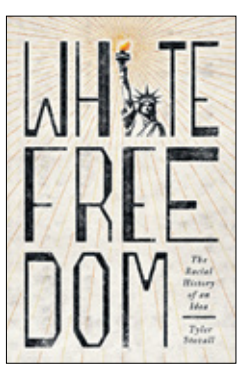

يتناول الباحث تايلر ستوفال في كتابه **الحرية البيضاء: التاريخ العنصري لفكرة**، الصادر عن «منشورات جامعة برنستون»، التاريخ المتشابك للعنصرية والحرية في فرنسا والولايات المتحدة، اللتين اعتَبرتا الحرّية جزءاً من هويتهما الوطنية. ينتقد الكاتب مصطلحاتٍ عرقية وتصوّرات عنصرية حول تفوّق الرجل الأبيض في تنظيرات العديد من المفكرين الفرنسيين والأميركيين، مبيّناً أن التمييز كان جزءاً أساسياً من تقاليد الديمقراطية، خلافاً لما يروّج له البعض، كما أن الهوية البيضاء تشكّل جوهر الأفكار الغربية حول الحرية.

في طبعة مشتركة بين منشورات «سرد» ودار ممدوح عدوان»، تصدر قريباً رواية جديدة للكاتب السوري ممدوح عزام (1950) بعنوان **حبر الغراب**. يُشير المؤلف في تدوينة له على موقع «فيسبوك» خصّصها للإعلان عن العمل الجديد إلى أنه كتبه خلال فترة العزل التي فرضتها جائحة كورونا. من أبرز روايات عزّام الأخرى: «معراج الموت» (1987)، و«قصر المطر» (1998)، و«جهات الجنوب» (2000)، و«أرض الكلام» (2005)، و«أرواح صخرات العسل» (2018)، و«لا تخبر الحصان» (2019). كما صدرت له مجموعتان قصصيّتان: «نحو الماء» (1985)، و«الشراع» (2000).

بترجمة التونسي فتحي إنقزو، صدرت حديثاً النسخة العربية من كتاب **في الدين: أحاديث للمثقفين من بين منكريه** للفيلسوف الألماني فريديريك شلايرماخر عن منشورات «صوفيا». صدر العمل لأوّل مرة عام 1799، ويُصنَّف بين كتابات الشباب في تجربة شلايرماخر، بحيث يرى فيه مؤرّخو الفلسفة أثراً للتكوينات الفكرية الأولى على أحد أبرز وجوه الفكر التأويلي في نهاية القرن 18. ويمثّل الكتاب أحد أهم ما جرى تأليفه في فلسفة الدين غربياً، إذ يجعل الفيلسوف الألماني ظاهرة الاعتقاد موضوعاً فكرياً بحتاً بعد أن كان يدرسها من منطلق لاهوتي.

عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» و«دار السويدي»، صدر حديثاً كتاب **خطوات في شنغهاي: في معنى المسافة بين مصر والصين** للكاتبة المصرية منصورة عز الدين. سبق للعمل أن فاز بـ«جائزة ابن بطوطة لأدب الرحلة»، وفيه تعود عز الدين إلى زيارات للصين بين 2018 و2019 ضمن إقامات أدبية. وعلى الرغم من كون العنوان يشير فقط إلى مدينة شانغهاي، فإن نصوص الكتاب تضيء العديد من المدن الصينية التي زارتها الكاتبة المصرية، ومنها بيكين وجوهاي. وفي كلّ مرّة، تبرز الكاتبة البلد باعتباره قارّة تتنوع فيها المناخات والثقافات.

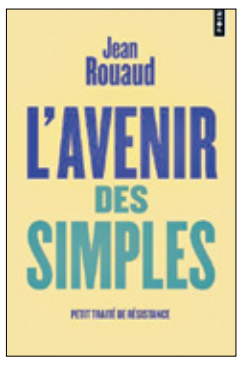

مستقبل البسطاء: مصنّف موجز عن المقاومة عنوان كتاب لـ جان رُوُو صدر حديثاً عن منشورات «سوي». يقدّم المؤلف قراءة حول واقع البشرية اليوم في ظل هيمنة الشركات الكبرى، والتي يُسميها «الوحوش»، كما يدين «الأوليغارشيا المالية» التي حوّلت كل شيء إلى أرقام يستفيد منها قلّة. يرى روو أن تغييراً جذرياً ينبغي أن يبدأ من خلال عامة الناس، ضارباً مثال «مذبحة الحيوانات» التي يمكن إنهاؤها في حال خفّف البشر استهلاكهم للحوم، وهو أمر لا يمكن تحقيقه من دون تغيير عام في سياسات الغذاء وفي أنماط السلوكيات الاستهلاكية.

الوحشية: فقدان الهوية الإنسانية كتابٌ للمفكّر الكاميروني آشيل مبيمبي صدرت نسخته العربية حديثاً بترجمة وتحقيق نادرة السنوسي عن «ابن النديم للنشر والتوزيع» و«الشبكة المغاربية للدراسات الفلسفية والإنسانية». في هذا العمل، يقف مبيمبي عند الهوّة القائمة بين ما كان يأمل الإنسان في تحقيقه مِن حقوق وتكريس لحقّ المواطنة وتجاوُز للتمييز العنصري بفضل التطوّر التكنولوجي، وما يعيشه اليوم من عنصرية وحروب ووحشية وتدمير للبيئة. يصف المؤلّف البشر المعاصرين بـ«ديناصورات القرن الحديث، التي تسير نحو فنائها دون وعي».